الخطاب الإيديولوجي وَإشكالية الهويّة والانتماء رِوايَة فضل اللَّيْل على النَّهار لِيَاسْمِينَة خَضْرَا نَمُوذَجًا

The ideological discourse and the problem of identity and belonging, the novel The Excellence of Night Over Day, by Yasmina Khadra as an example

لخضر جوادي

جامعة الحاج لخضر – باتنة 1

University of Batna 1

مخبر أبحاث في التراث الفكري والأدبي بالجزائر جامعة الحاج لخضر – باتنة 1

lakhdar.djouadi@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/26 تاريخ القبول 2023/04/14 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص: تَنَاوَلَتْ رِواية فَضل اللَّيْل على النَّهَار لِلكَاتب الجَزَائِرِي يَاسْمِينَة خَضْرَا مُخْتَلَف الهُوِيَات (الوَطَنِيَّة / الأَجْنَبِيَّة) الَّتِي عَاشَتْ عَلَى أَرْض الجَزَائِر ابَّانَ الاحْتِلَال الفِرَنْسِي لَهَا، وَتَطَبَّعَ بِهَا (المسْتَعْمِر/ المسْتَعْمَر) حَتَّى بَعْدَ الاسْتِقْلَال، فَجَاء الخِطَابُ عِبَارَة عَلَى مَصْفُوفَةٍ سَرْدِيَةٍ حَامِلًا بَيْنَ ثَنَايَاه بُعْدًا ايديُولُوجِيًا، نَاقِلًا لِلقَارِئ صِرَاع ثُّنَائِيَّة (الأَنَا / الآخر)، أَيْنَ عَانَتْ المركبَة الأُولَى –الأَنَا– من الاسْتِلَاب الثَّقَافِي وَالاغْتِرَاب الوِجْدَانِي وَالاجْتِثَاث الهُوِيَاتِي، بَيْنَمَا كَان الحَنِين مُلَازِمًا لِلمُرَكِبَة الثَّانِيَة –الآخر– بَعْدَ طَرْدِهَا وَتَحْرِيرِ البِلَادِ من دَنَسِهَا، كَمَا لَمْ تُغْفِل الرِّوَايَة الصِّرَاع الدَّاخِلِي الَّذِي دَارَت رَحَاهُ بِيْنَ أَبْنَاء البَلَد الوَاحد فِي مَرْحَلَة العَشْرِيَّة السَّوْدَاء، فِي مُقَارَبَة لِمُخْتَلَف الايديولوجِيَات المتَصَارِعَة، الَّتِي كَشَفَتْ عَنْ تَبَاين الأَصْوَات (*polyphonie*)، مِمَّا اضْفَى عَلَيْهَا تَنَوُّعًا فِكْرِيًا وَاخْتِلَافًا فِي الطَّرْحِ، أَيْنَ طَرَحَتْ صِرَاعًا ايديولُوجِيًا فِي العُمْق، وَتَعَدَّدَت الآراء دَاخِلَ مَتْنِهَا، مِمَّا ضَمِنَ لَهَا تَلَقِّيًا أَكْثَر وَاسْتَمَرَّ لِفِتْرَةٍ زَمَنِيَّة أَطْوَلَ، فَالقَارِئ وَجَدَ فِيهَا المتْعَة، عَلَى خِلَاف رِوَايَة الصَّوْت

الوَاحِد أَوْ مَا يُصْطَلَحُ عَلَى تَسْمِيَّتِهِ بالرِّوَايَة أُحَادِيَّة الصَّوْت (*monologisme*)، الَّتِي تَطْرَحُ ايديُولُوجيَا وَاحِدَة.

الكلمات المفتاحية: الخِطَابُ، الاسْتِلَاب الثَّقَافِي، الاغْتِرَاب الوِجْدَانِي، الاجْتِثَاث الهُوِيَاتِي، الحَنِين، الصِّرَاع الايديولُوجِي، العَشْرِيَّة السَّوْدَاء.

Abstract: The novel The Excellence of Night Over Day by the Algerian writer Yasmina Khadra dealt with the different identities that lived on the land of Algeria during the French occupation of it, And it was printed (the colonizer / the colonized) even after independence, so the discourse came as a phrase on a narrative matrix, carrying between its two hands. Conveying to the reader a dual struggle (the ego / the other), where the first vehicle - the ego - suffered from cultural alienation, emotional alienation, and the ablation of identities, While nostalgia was attached to the second chariot - the other - after its expulsion and the liberation of the country from its defilement, The novel also did not neglect the internal conflict that took place between the people of the same country during the period of the black decade. In an approach to the various conflicting ideologies, Which revealed the divergence of voices, which gave it an intellectual diversity and a difference in discourse. Where did you raise an ideological conflict in depth? There were many opinions within its body, which ensured more reception and continued for a longer period of time. The reader found pleasure in it, unlike the one-voice narration, or what is termed as the monologue, theological narration.

key words: Discourse, cultural alienation, emotional alienation, identity ablation, nostalgia, ideological conflict, the black decade.

مقدّمة:

سَنُحَاوِلُ من خِلَال هَذِهِ الوَرَقَة البَحْثِيَّة مُقَارَبَة تَجَلِّيَات الخِطَاب الايديولوجي عَلَى مُسْتَوى العَتَبَات وَالمتن في رواية فضل اللَّيْل على النَّهار، (Ce que le jour doit a la nuit)، لِيَاسْمِينَة خَضْرَا، على اعْتِبَار سُلْطَة ايديولوجيا الكاتب على النَّصوص الأدبية الرِّوائِية، سواء كان ذلِك على مستوى الأَنْسَاق الايديولوجية المضمرة أو غير المضْمَرة.

أَوَّلًا – الجانِب النَّظَرِي

1 – الخِطَاب:

أ – الخِطَابُ لُغَةً: الخِطَابُ فِي اللُّغَة مِن الجِذرِ (خَ – طَ – بَ)[1]

الخَطْبُ: الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ، صَغُر أَو عَظُم؛ وقيل: هو سَبَبُ الأَمْر. يقال: ما خَطْبُك؟ أَي ما أَمرُكَ؟ وتقول: هذا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأمر الذي تَقَع فيه المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ؛ ومنه قولهم: جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن.

وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ الخِطَاب فِي القُرْانِ الكَرِيم فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [2]

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [3]

فَالخِطَابُ هُوَ تَفَاعُل بَيْنَ شَخْصَيْنِ أَوْ أَكْثَر يَتِمُّ ضِمْنَ سِيَاقٍ اجْتِمَاعِي مُعَيَّنٌ.

ب – الخِطَابُ اصْطِلَاحًا: الخِطَابُ جِنْسٌ مُلَازِمٌ لِبَنِي البَشَرِ مُنْذُ نَشْأَتِهم، وَهُوَ لِسَانُهُم المعَبِّر عَن حَالِهم وَحَيَاتِهم اليَوْمِيَّة وَانْشِغَالَاتِهم وَانْفِعَالَاتهم، وَتَرْجَعُ أَصْلُ نَشْأَة مُصْطَلَح الخِطَاب (Discours) فِي الفِكْر الغَرْبِي الى فرديناند دو سوسير (Ferdinand de Saussure)* ، حيثُ أَرْدَفَ مَفْهُوم الخِطَاب لمصطلح الكَلَام من خلال حَدِيثِهِ عن ثُنائِيَة (اللُّغَة/الكَلَام)، أَيْنَ اهْتَمَّ باللُّغَة، كَوْن الكَلَام فِعْل فَرْدِي يمثِّلُ الجَانب الفِيزْيَائِي (بِدَايَة اللِّسَان)، وقَدْ حَذَا حذْوَهُ كُلٌّ من: رومان جاكبسون، وَ نَعوم تشومسكي، وشارل بالي، وقسطاف غيوم، وَهَيالمسليف، ومِيخائِيل بَاختين، وَرولان بَارث، لَكِنَّ هَذِه الثُّنَائِيَة (اللُّغَة/الكَلَام)، (langue/parole)، تَغَيَّرَت باخْتِلَاف اتجاهاتهم، فَأَصبح المفهومان: "عِنْدَ وَهَيالمسلاف (الجِهَاز والنَّص)، (Système/texte)، وعِنْدَ نَوام تشومسكي (الطَّاقَة والانْجَاز)، (compétence /performance)، رومان جاكبسون (السُّنَنُ والرِّسَالَة)، (code/message)، وعِنْدَ وقسطاف غيوم (اللُّغَة والخِطَاب)، (langue/discours) وعِنْدَ وَرولان بَارث (اللُّغَة والاسلوب)، (langue/style)"[4] ، وَبِذَلِك تَعَدَّدت مَفَاهيم الخِطَاب بَيْنَ: النَّص، وَالانْجَاز، وَالرِّسَالَة، والأُسْلُوب ...

وَيُعَرِّفُ بُلُومفِيلد الخِطَاب بِأَنَّهُ: "كُلُّ تَلَفُّظٍ يُفْتَرَضُ مُتَكَلِمًا وَمُسْتَمِعًا، عِنْدَ الأَوَّل هَدَفُ التَّأْثِير عَلَى الثَّانِي بِطَرِيقَةٍ مَا"[5]، وَيُعَرِّفُ أَحمد المتَوَكِّل الخِطَاب بِقَوْلِهِ: "يُعَدُّ خِطَابًا كَلُّ مَلْفُوظٍ/ مكتوبٍ يُشَكِّلُ وِحْدَةٍ تَوَاصُلِيَّة قَائِمَة الذَّات"[6]، فَهَذَا التَّعْرِيف اعْتَمَدَ التَّوَاصُلِيَّة مِعْيَارًا للخِطَاب، أَمَّا جَبُّور عَبْد النُّور، وَسُهَيْل ادْرِيسِي يُعَرِّفَانه بِ: " تَجَمُّعَاتٍ لِأَقْوَالٍ، أَوْ جُمَلٍ، أَوْ عِبَارَاتٍ يَتِمُّ تَشْرِيعُهَا فِي سِيَاقٍ اجتِمَاعِي مُعَيَّن، فَيُحَدِّدُهَا هَذَا السِّيَاق"[7].

كَمَا يُقْصَدُ بِمُصْطَلَح الخِطَاب (Discours): "كُلُّ كَلَامٍ تَجَاوَزَ الجُمْلَة الوَاحِدَة سواء كان مَلْفُوظًا أَوْ مَكْتُوبًا"[8]، فَالخِطَابُ أَوْسَعُ من الجمْلَة فَهُوَ يَخْرُجُ عَن حُدُودِهَا الى مجمُوعة من الجُمَل مَنْظُومَة فِي سِيَاقٍ وَاحد ويكُونُ بِهَذَا المعْنَى، الخِطَابُ عِبَارَة عَن: "وِحْدَةٌ لُغَوِيَّة أَشْمَلُ من الجُمْلَة، نِظَامٌ من الملْفُوظَات، يَتَحَدَّدُ مَفْهُومُهُ فِي اللُّغَةِ بِنَاءً عَلَى التَّلَفُّظِ أَوْ العَلَاقَة بَيْنَ الطَّرَفَيْن مُخَاطِب وَ مُخَاطَب"[9].

لِيَكُونَ بِذَلِكَ الاستعمال الاصطلاحِي لمصْطَلَح الخِطَاب الايديُولُوجِي يَخْرُجُ عَن التَّعارِيف السَّابِقَة، لِيَتَجَاوَزَ الدَّال الى مدلول آخر غير دَلَالَات الكلام الملفوظة أَوْ المكْتُوبَة، لِيُدْرِكَهَا السَّامع أَوْ المتَلَقِي دون علامات مُعْلَنَة أَوْ وَاضِحَة عِنْدَ البَحْثِ عَن القَوَاعِد الَّتِي تَحْكُمُ انْتَاج الدَّلَالة "إِنَّ للكلام دلالات غَيْرُ مَلْفُوظَة يُدْرِكُهَا المتَحَدِّثُ وَالسَّامع دُون علامة مُعْلَة أَوْ وَاضِحَة"[10]، فيؤدي هذا الخطاب الذّي فيه انْزِيَاح الدَّال عن المدْلُول أَوْ الدَّلَالَة المتَعَارف عَلَيْهَا، وَالذّي يُعرف بالمصطلح الأسلوبي انحرافا أو انزياحا (Déviation)، إلى شدِّ انتباه القارئ مما يؤدي إلى تحقيق تواصلا إيجابيا بين النَّص والمتَلَقِّي، فيقرأ النّص كاملا، ويحقق بذلك متعة القراءة.

2 – مفهوم الهويّة:

يَتَمَيَّزُ مَفْهُومُ الهُوِّيّةِ بتعدد معانيه، وكثرة دلالاته، فهو حديث الظهور، غيّر أنّ هناك إجماع على أنَّه بَقِيَّ عَصِيّ على التَّعْرِيف، والحَصْرِ، وَسَأُحَاوِلُ مقاربة مفهوم الهويّة،

فَهُنَاكَ من نَظَرَ الى المصْطَلَحِ نَظْرَة مُبَسطَةً وَعَرَّفَهُ دُونَ تَكَلُّفٍ عَلَى غِرَار مُنِير غَسَّان الَّذِي عَرَّفَهُ بِـ: " تُشِيرُ الى الكَلِمَة العَادِيَة الَّتِي تَرْمُزُ الى مَعْنَى مَاهِيَّة النَّاسِ"[11]، وَهُنَاكَ من نَظَر الَيْهِ بِشَيْءٍ من التَّعْقِيدِ فاسْتَعْصَى المصْطَلَحُ عَلَى الضَّبْطِ وَالتَّعْرِيف فَالهُوِيَّة عِبَارَة عَنْ " عَنَاصِر التَّرَاكِيب فِي عَلَاقَاتِهَا الدَّاخِلِيَّة الَّتِي تُعْطِي لِلكَائِنِ خَصَائِصُهُ الأَسَاسِيَّة، وَالَّتِي تَصِلُ بِالوَسطِ الخَارِجِي طَبِيعِيًا كَانَ أَوْ غَيْرُ طَبِيعِيٍّ، وَمِنْهُ يَتَّضِحُ أَنَّ الهُوِيَّةَ لَيْسَتْ كَائِنًا ثَابِتًا، ... وَإِنَّمَا هُوَ مُتَغَيِّرٌ"[12] وَبِذَلِكَ يَكُونُ مُصْطَلَحُ الهُوِّيَّة مُصْطَلَحًا مُتَطَوِّرًا مُتَجَدِّدًا لَا يَرْسُو عَلَى حَال يُمْكِنُ تَنَاوُلَهُ من جَانِب اجْتِمَاعِي أَوْ دِينِي أَوْ نَفْسِي أَوْ سِيَاسِي حَيْثُ " تَنَاثَرَ عَلَى ضِفَافِ تَخَصُّصَاتٍ عِدَّة دَاخِل حَقْل العُلُوم الانْسَانِيَّة من الانْثروبُولُوجيَا الى السُوسْيُولُوجيَا، وَمن السَيْكُولُوجيَا الى عُلُوم السِّيَاسِيَّة"[13]، فَالهُوِيَة تَتَجَلَّى فِي مَجَالَاتٍ عِدَّة، وَيَتَحَدَّدُ مَفْهُومُهَا بِنَاءً عَلَى الدَّلَالَة اللُّغَوِيَّة، وَالسُّوسْيُولُوجِيَّة، وَالفَلْسَفِية، وَالتَّارِيخِيَّة، وَهَذَا " مِمَّا زَادَ فِي صُعُوبَةِ المَفْهُومِ، وَتَعْقِيدِهِ، وَعَدَم امْكَانِيَّة تَحْدِيدِهِ، وَكَذَا عَدَم القُدْرَةِ عَلَى اعْطَاء مَدْلُولٍ صَالِحٍ لِكُلِّ هَذِهِ الميَادِينِ"[14]

فالهويّة: هي كيان متخيلّ " تنطوي على منظومة من القيّم الثقافية المشتركة، وتتجلى في أشكال ثقافية ظاهرية ، ويرتبط المنتسبون إليها بشبكة من أدوات التواصل والتفاعل، ويحدّد أفرادها أنفسهم مثلما يحددهم الآخرون"[15] وبغيّة التَّشْدِيدِ عَلَى بُعْدِ الهويّة يستخدم بعض الكتّاب مفهوم (الاستراتيجية الهوياتية)، وتبدو الهُوية من هذا المنظور وسيلة لبلوغ غاية وهي إذا نسبيّة وليست مطلقة.

كما تعرف بأنها: " مجموعة من الخصائص والملامح التيّ تتكون منها الشخصية المميزة لشعب من الشعوب وهناك كثير من المفاهيم التي تُساعد في الإحاطة بموضوع الهويّة مثل: الذات، والشخصيّة، والفرد وروح الجماعة، والضمير الجمعي، وغيرها "[16].

يظهر من خلال هذين التعريفين أنّه لكل فرد من أفراد المجتمع هويّة شخصية، وهويّة اجتماعية، يُنسب من خلالها إلى مجموعة معيّنة، وهذا الانتماء للمجموعة إنّما هو تقسيم وتنظيم للمحيط الاجتماعي.

وتتبوّأ قضية الهويّة " مكانة مركزية لاعتبارها قضية نظرية فكرية من زاوية نظر فلسفية وانثربيولوجية ...بل بصفتها قضية وجودية لمستقبل الثقافة والمجتمعات العربية "[17] وَيَشْغَلُ سؤال الهويّة والبحث عن الذّات أذهان الفلاسفة والمفكرين على مرِّ العصور "واختلف تأويله من فكر لآخر، ومن فلسفة لأخرى، دون التحقّق من ماهية الإنسان بما هو روح وإرادة، لأن عمق ما في الإنسان روحه، ويبقى مؤجلا على الأقل في الثقافة الإسلامية." [18]، حيث أنّ الرُّوح من أمر الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الرُّوح، قل الرُّوح من أمر ربيّ وما أُتيتم من العلم إلا قليلا﴾[19]، هذا التَّأجيل في حد ذاته إعجاز فهو يُثير ويضخم السُؤال في دواخلنا في الوقت الَّذِي ينهانا الله سبحانه وتعالى عن ذلك.

وإشكالية الهويّة " تنطلق من مُسلمة أساس مفادها أنّ الهويّة ببُعديها الفردي والجمعي لا يمكن – بل لا يصحّ بأيّ حال من الأحوال– إنتاجها، أو استنساخها بقضّها وقضيضها عبر الأجيال، والحقب التاريخية "[20] فلكل جيل خصوصيته، وفي الوقت نفسه، فإنّ مفهوم الهوية لا يكتسي طابع الدَّيْمُومة والثَّبات، بل يتأثر بمؤثرات خارجية، ويتفاعل معها، حيث " يمثل التفاعل والتثاقف الحضاري، سواء منه الطوعي المتبادل، أم القصري، والمباشر وغير المباشر عاملا فاعلا وحيويّا في تشكيل الهويّة الجماعية للشعوب بوصفها نتاجا لصيرورة تراكمية تنفي عن مفهوم الهويّة صفة التأبيد والثبات "[21] وَمِن أَجْلِ الحِفَاظِ عَلَى الهُوِيَّة الوَطَنِيَّة وَفِي غمرة عملية المثاقفة أو بالأحرى عملية التثقيف أو ما يُصطلح عليه عملية الاكتساب المعرفي " برزت الهواجس والمخاوف في الثقافات

العربية والإسلامية المستقبلة أو المستهدفة حول ما يمكن أن يتركه الانكشاف في ثقافات الآخر من آثار في الهوية الوطنية "[22]

فإشكالية الانفتاح على الآخر بقيت تراوح مكانها بين الرفض والقبول، فهناك تيار يدعو للرّفض التّام، والتعصّب لذلك، وحجتهم المقوّلة الشهيرة (ما يأتي من الغرب لا يُفرح القلب)، وتيّار ثان يدعو إلى التكيّف الانتقائي، وتيّار ثالث يدعو إلى الانفتاح والقبول والتبنّي لثقافة الآخر دون قيد أو شرط، " وتتسع مقولة الاختلاف والخلاف لتشمل أحيانا المنازعة والجدل والجدال والمجادلة وما إلى ذلك، ولكن الاختلاف يبقى سُنّة كونية لا مناص منها "[23]، وقد جاء ذِكْرُ الاخْتِلَافِ في القرآن الكريم في عدّة مواقع نذكر منها: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾[24].

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[25] .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[26] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[27] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[28].

وهذا ما يثبت بأنّ الاختلاف سنّة كونية لا مناص منها، وهذا الاختلاف يقصد به المغايرة المطلقة في القول والفعل والعمل، و" أجمعت العرب على أنّ الاختلاف والمخالفة في اللغة تعني أنْ ينهج كلّ شخص طريقا مغايرا للآخر في حاله أو في قوله "[29].

وقد يكون التَّثَاقف قصري كالهيمنة الاستعمارية وما يُفرض عن المسْتَعْمَرِ من تبعات لها، بإيجابياتها وسلبياتها، وما يؤخذ بتحفظ، ومن دون تحفظ، يجعل الأنا المتفاعلة في وضع معقد، فهي تحاول الاستفادة من الآخر، في حين أنّها تحاول الدّفاع عن ذاتها، وتُقَاوِمُ حَتَّى لا تذوب، كما قد تكون عملية المثاقفة بالاحتكاك عن طريق الهجرة، أو

البعثات العلمية، أو التعليمية، أو عن طريق الترجمة، التي تُعدُّ رَافِدًا مُهِمًّا من روافد المثاقفة عبر تاريخ الإنسانية.

ويجدر بنا التَّنْوِيه بالعلاقة الجوهرية القويّة بين اللُّغة والهوية الثَّقَافية، وَعَمَلِيَّة التَّرجمة، أو النقل عن اللُّغات الأجنبية الأخرى، فهي عملية أخذ دون عطاء، وكلّها تمرّ في اتجاه واحد، فهي " في أغلبها عملية تثقيف من جانب واحد، (Enculturation)، لا عملية تثاقف متبادل بين طرفين، (Acculturation)" [30].

3 – الهُوِيَّةُ وَالبَحْثُ عَنِ الذَّات فِي الرِّوَايَة الجَزَائِرِيَّة المَكْتُوبَة بِالفِرَنْسِيَّة:

كشفت المقولة التي أطلقها كاتب ياسين: (Ce Taire ou dire l'indicible)، عن مدى الغربة التي يعيشها الكاتب والحيرة الَّتِي يُعَانِيها فإذا سَكَتَ أصْبَحَ شَرِيكًا في الجريمة، وإذا نَطَقَ فبأيّ لُغَةٍ ينطق؟ فهذه المقولة تُقْرَأُ على أنّها نداء لذات قبل غيرها، "فالصَّمْت إمّا ينتج عن تأمّل، أو هدوء، أو تفكير، أو قهر وظلم وعذاب"[31]، وتحيّل كلمة الصَّمْتُ إلى الغياب، كما قد تحيل إلى الموت المادي قبل المعنوي، " لكن هناك حتمية إيديولوجية وتاريخية تفرض عليه الكتابة والبحث عن فضاء جديد، يستطيع من خلاله التعبير عن المتخيّل ولا يملك إلا لغة واحدة وهي لغة العدو"[32].

فيأتي بعد الصَّمْت كَسْرُه، وَيأتي بَعْدَهُ البَوْحُ لِيَمْنَحَ الحياة والتَّجْدِيد، فَالبَوْحُ بَعْدَ الصَّمْتِ يجعل الإنسان مُتصالحًا مع نفسه، ومجتمعه وماضيه ومستقبله ونجد أنّ مالك حداد يذكر في إحدى قصائده التّي عبّر فيها عن غربته قائلا: " أنا أرطن ولا أتكلم؛ إنّ في لغتي لكنة، إنيّ معقود اللّسان "[33]، وَعِنْدَمَا قرأ الفرنسيون هذا الشعر المكتوب باللغة الفرنسية الرّاقية قالوا له: " ما هذا التواضع؟ إنّ لك لفرنسية رائعة "[34] إنها مأساة اللغة يضيف مالك حدّاد لو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا، فكتب أرجون: " إنيّ أفهم مأساتهم، مأساة أن يروا أدبهم مترجما قد فقد أصداءه العميقة أو كاد.. "[35].

وَيَقُولُ سَامِي الدّروبي في مقدمة تَقْدِيمِه لِتَرْجَمَة ثلاثية محمد ديب عن الأدباء الجزائريين الذّين استعاروا اللسّان الفرنسي، مبينا شعورهم بالغربة والمأساة: " إنّهم في ذلك في مأساة .... في مأساة ذات وجوه عدّة، ليس أخطرها شأنا أنّ أحدهم يتمنّى أن ينطق باللغة التي تتفق وسمرته، وأن يكون عربي اللسان كما هو عربي الوجه، واليد والقلب، لا لأنّهم يبجلون الكتابة بلغة هي لغة المستعمر العدو"[36].

وتتجلى هذه المأساة من خلال تصريحهم علنّا، وبتعبير مباشر أو ضمنّي بالرّسائل التي تظهر على ألسنة شخصياتهم الرّوائية، فالبحث عن الذّات أو البحث عن الهويّة المفقودة لا يكون إلاّ بعد الإحساس بالضيّاع وفقدان الانتماء، نذكر رواية سيمورغ (SIMORG)، لِمَحَمَّد ديب حالة الضيّاع ذاتها فيحاول الكاتب "النُّزُول إلى أعماق الذّات وإلى أعتم النقاط فيها"[37]، حيث جعل ديب نفسه طائرا يُحَلِّقُ مَعَ الطُّيُور يتحدث على لسانِهَا، ويطير حيث يشاء وشاركها رحلتها المضنيّة متجها صوب ملكهَا سيمورغ، " ولم تمنعه الصورة الرّمزية من وضع بطاقة هويّة، جرّد نفسه فيها من اسمه العائلي ونسبّه – إنني (ب.ا.ع) (S.N.P)* - وحتى إن جهل الآخرون الإحدى عشر ذلك بلا اسم عائلي، لقيط معتوه ذلك هو اسمي " [38]، ووظف صورة أخرى مبينا فيها قمّة الضيّاع حين يقول: " الظلال التي تُضيّعها الغيوم على الطريق تهيم في الحقول تهيم في حيرة هائلة، نحن نهيم أيضا، ولكن الظلال أي غيوم نحن؟ نحن نهيم " [39]، ويقول في موضع آخر: " أتكلّم لغة أخرى من أكون "[40]، كَمَا تَظْهَرُ غُرْبَةُ الرّوَائِيَّة الجَزَائِرِيّة ليلى صّبار (Leïla SABBAR)، وَهِيَّ تَبْحَثُ عَن هُوِيَتِهَا المفقودة من خلال عَمَلِهَا الأَدَبِي المَوْسُومِ بِـ: لا أتكلم لغة أبي، (je ne parle pas la langue de mon père)، أَيْنَ أَبَانَتْ عَن غُرْبَتِهَا، وَكَشَفَتْ عَنْ ضَيَاعِهَا.

ثَانِيًا – الجانب التطبيقي:

1 – الخِطَاب الايديولوجِي في رواية فضل اللَّيْل على النَّهار:

في ظل التَّنَامِي المتسارع في مجال الابداع الادبي، تُصْبِحُ وتُمْسِي السَّاحَة الادبية كُلَّ يوم على تدفُّقِ الكَم الهائل من المصطلحات الجديدة، الَّتِي تُفْرِزُهَا الدِّرَاسات النَّقدية ومنها مصطلح البُعد الايديولُوجِي (la dimention idéologique)، والَّذِي يَهْدِفُ أَسَاسًا للبحث في العلاقة القائمة بين الابداع الادبي من جهة والابعاد الايديولوجية الَّتِي يُضَمِّنُهَا الكاتب في ابداعه الادبي في مُحاولة منه للتأْثير عن المتلقي من جهة ثانية .

وكما يُقَال: الاديب ابن بيئته وبتالي لن يكون في مَنْأَى عن التأثر بما يُحِيطُ بِهِ مِنْ ظُرُوفٍ اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وما تفرزه الحياة اليومية من اشكاليات، وتناقضات، وصراعات ايديولوجية، و... وهذا ما سأقصر عليه الجَانِب التَّطْبِيقِي من البَحْث.

يُعْتَبَرُ الوَاقِع المعِيش الرَّافد الرَّئيسي للكتابة الرِّوَائية، وذلك بتصويره الصَّادق لواقع الحياة الَّتِي مرت بهَا الجزائر، حيث عكف الكاتب ياسمينة خضرا على توصيف العلاقة بين الأَنَا والاخر ضمن مقاربة ايديو-سوسيولوجِيَّة، حيث حاول صَبْرَ أَغْوَارِ الذَّات الجزائرية والغوص فيها، واظهار خُصُوصِيَتِهَا، وتأْصيل هُوِّيَتِهَا، وقارب بِذَلِك مَسْأَلة الهُوِية واللِّقاء الحضاري من جهة، واظهر تمثُلاتها حينما ولج عالم الآخر، وعكف على مُجاراة التَّأْريخ ومُسَايرته تارة والقفز على قدسيته تارة اخرى.

وقَبْلَ تحليل النَّص والولوج الى مدلولاته المضمرة يجدر بنا طرح عدَّة تساؤلات حول وقت اسْتِصْدَارِ هذا العمل الرِّوائي، والدَّوافع الَّتي ادت بالكاتب لخوض غمار هذا النَّوع من المواضيع:

- فمتى صَدَرَ هَذَا المنْتُوج والابداعي؟
- وما هي الدَّوافع الحقيقية الَّتي ادَّت بالكاتب لِلْنَّبْشِ في الذَّاكرة؟

إنَّ المتَتَبِّعَ لأَعمال الرِّوائي ياسمينة خضرا يجد بقليل من العناء، بأنَّ اعماله الاولى انْفَتَحَتْ على الرِّوايات البوليسية وروايات الجَوْسَسَة، فكانت واضحة المضْمُون، سهلة الولوج، حتى على طالبي المتعة والتَّسْلية، ناهيك عن النَّاقد الحَصِيف واصحاب

الاختصاص الاكفاء، فهم يلحظون بشيءٍ من اليُسْر ما اراد الكاتب البوح به، وما اضمره من دلالات وايحاءات خلف انْساقٍ ايديوسيكوسوسيوثقافية حاك فيها الواقع بطريقة تخييلية، لتُؤَثِّر في المتَلقي، ليجد نفسه طرفًا مُتَفَاعلًا بل مشاركًا في أحداث الرِّواية منْذُ بدايتِها، وذلك من خلال تفاعله مع أَنَا البَطل فتجده يتمثَّلُها بما تمليه من أقوال وأفكار، فتحرك وجدانه بفعل التَّخْييل من خلال توظيف السَّارد لضمير المتَكلم (أَنَا).

ابَانَ الكاتب الجزائري ياسمينة خضرا فِي رواية فَضل اللَّيْل على النَّهَار (Ce que le jour doit a la nuit)، أوجاع وَاعْطَاب الذَّاكِرَة بامتياز، وَحَوَّلَ المعَانَاة بِفعل المعالجة الفنية إلى أداة سردية للحفر في الذاكرة، والكشف عن جروحها التي لم تندمل مع مرور الزمان، وَكَيْفَ تركت آثارها على جسد يَئِنُّ تَحْتَ أعباء التاريخ الدَّامِي .

يتساءل بول ريكور في كتابه "الذاكرة، التاريخ، النسيان"، قائلًا: " انَّ فِينومينولوجيا الذَّاكِرَة الَّتِي أَقْتَرِحُهَا هُنَا قد بُنِيَّت حولَ سؤالين: من ماذا هناك ذكرى؟ لمن هي الذاكرة؟"[41] فالسُّؤَال عن الذَّاكِرَة يُحِيلُ عَلَى التَّأريخ، ومن الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية، تَتَوَلَّدُ سوسيولوجيا الذاكرة الجماعية التي بدورها تعمل على كتابة التاريخ، الحامل في دواخلنَا تَنَاقُضَات (الأنا/ الآخر).

وَطَرَقَ يَاسْمِينَة خَضْرَا المسْكُوتَ عَنْهُ كَقَضِيَّة أَصْحَاب الأَقْدَام السَّوْدَاء، فَصَاحَبَتِ الرِّوَايَة هِجْرَتِهم وتَهْجِيرِهم، وَطَرَحَتْ حَنِينَهم وَشَوْقَهم لِأَرْضِ الجَزَائِر الَّتِي وُلِدُوا فِيهَا وَتَرَعْرَعُوا عَلَيْهَا، فَهَذَا النَّوع من الطَّرْح عَدَّهُ بَعْضُ البَاحِثِينَ اضَافَةً جَدَيدَة فِي الأَدَب الجَزَائِرِي المكْتُوب بِالفِرَنْسِيَّة، مِمَّا يُؤَدِّي الى اسْتِقْطَابِ الكَثِير من القُرَّاء، " هَذَا الصَّوْتُ مَسْكُوتٌ عَلَيْهِ فِي الخِطَابَاتِ السِّيَاسِيَّة المحَلِّيَّة، لَكِن الجُرْأَة الرِّوَائِيَة مَكَّنَتْ الأَدِيب يَاسْمِينَة خَضْرَا من قَوْلِ مَا لَمْ يَقُلْهُ الآخَرُون، وَهُوَ بِذَلِكَ يُقَدِّمُ أَدَبًا مُخْتَلِفًا، مُضِيفًا صَوْتًا آخَرًا، سَيَجِدُ صِنْفٌ كَبِيرٌ من القُرَّاء أَنْفُسَهُم فِيهِ، إِنَّهُ صَوْتٌ انْسَانِي ... يَضَعُ السِّيَاسَةَ وَالدِّينَ وَالايْدْيُولُوجيَا جَانِبًا لِيَقُومَ بِتَصْوِيرِ نَبْضِ النُّفُوسِ من مُخْتَلَفِ الاتِّجَاهَاتِ "[42] وَحَاوَلَ

يَاسْمِينَة خَضْرَا تَخْييل صُورَة جَدِيدَة ايجَابِيَّة عَن الآخَر، غَيْرَ تِلْكَ الصُّورَة النَّمَطِيَّة، فِي مُحَاوَلَةٍ لإقامة صُلْحٍ بَيْنَ حَضَارَتَيْن مُخْتَلِفَتَيْن، حَيْثُ " دَعَا أَبْطَالَ عَمَلِهِ الى حِوَارٍ حَضَارِيٍّ خَلَّاقٍ، مُفْعَمٍ بِالتَّوَاصُلِ، وَالتَّلَاقُحِ، وَالانْفِتَاحِ، فَأَخَذَتْ الهُوِيَّة تَتَشَكَّلُ تَحْتَ طَائِلَةِ الآخَر وَمُكَوِّنَاتِهِ الغَيْرِيَة، فَكَانَتْ هَذِهِ الرِّوَايَة بِمَثَابَةِ رَدٍّ صَرِيحٍ عَلَى الخِطَابِ الكُولُونيَالِي الَّذِي حَاوَلَ جَاهِدًا تَهْمِيش الأَنَا الجَزَائِرِيَّة، وَتَغْيِيبِ ثَقَافَتِهَا المِحَلِّيَّة" [43]

وَ " قَدْ حملت الرِّواية كثيرًا من الشَّوَاهِدَ الَّتي يعيشها القارئ مُنْدَمِجًا وشخْصية يونس، حيث يتحول بفضل هذا الاسلوب السَّرْدي الى شاهِدٍ على كل المواقف والأحداث المتعلقة به والشَّخْصيات الاخرى، فلا يمكن الفصل بين الأَنَا كقارئ والأَنَا كسارد"[44]

فمن خلال تتبع مُجْرَيات الأحداث داخل فضاء النَّص السَّرْدي فضل اللَّيْل على النَّهَار، فَمَا جاء على لسان السَّارد بِأَنَّ العم لا يَهُمُّهُ أن تكون زوجتُه مَسِيحية أَوْ وَثَنِية، ومَا صَرَّح به في موضع لاحق، مُبَيِّن المعْتَقَد الدِّيني والانْتِمَاء الفكري والتَّوَجُه الايديولوجي له، ولباقي شَخْصِيات هذا العمل الرِّوائي من خلال الاختلاف في المعْتَقد، حين يقول على لسان البطل: "لم يكن حولي الَّا المؤْمِنُون، عمِّي مسلم، جرمان كاثوليكية، جِيرانُنَا من اليَهُود أوْ النَّصارى، في المدْرسة كما في الحي، كان اللهُ –عزَّ وجَلَّ– على جميع الالسنة، وفي جميع القُلوب"[45]، فبفعل القراءة والتَّخييل يُخَيَّلُ للقارئ بأَنَّ الكاتب اراد مُغَازلة فرنْسا، ربَّمَا ...

ويرتبط المتن ارتباطًا وَثيقًا بالبعد الدِّيني حيث نجد التَّنَاص مع النَّص القُرْآني في عديد المواضع، وهَذَا مَا يدُلُّ على تَشَبُّع الكاتب بالثَّقَافة الاسلامية، "يَتَأَمَّلُ المحصول الَّذي يَعِدُ أَخيرًا بِفَرْحَةٍ أكيدة، بَعْدَ سَنَوَاتٍ عِجَافٍ من الجَدْبِ وقُحُولة الأرض"[46] وهَذَا مَا يُحيلُنَا مُبَاشرة على النَّص القرآني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتي بعد ذلك عام فيه يُغَاثُ

النَّاس وفيه يعصرون﴾[47] بعدمَا وظَّفَ التَّركيبة سنوات عجاف من الآية الَّتي سَبِقَتها في قوله تعالى: ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سيمان يأكُلهن سبع عجاف﴾[48]

2 – الايديُولُوجيَا وَالمَنْظُومَة القِيمِيَّة فِي رِوَايَة فضل اللَّيْل على النَّهار:

يواصل السَّارد مسترْسِلًا في السَّرد والوصف، فَيُتَرْجِمُهَا تخييل القارئ فِي شَكْلِ لوحات فَنِّيَّةٍ تبدو شاخصةً امام عينيه، " تشمَّمَ المتَسَوِّلُ الأرضية، خَدُّه مضغوط على الاسمنت، عمامته على رقبته، كان يُدير لي ظهره، حاولت يداه المرتجفتان أَنْ تتشبَّثَا بشيءٍ ما، لكنَّه كان سكرانًا الى حدٍّ يصعب عليه الوقوف بسرعة، بعد تعثرات متكررة تمكن من الجلوس ... ثُمَّ لَمَّ عمامته وأدرها على رأسه بشكلٍ يُثِيرُ الضحك، تنبعث منه رائحة كريهة، يكون قد بال على نفسه ... انه ابي، ابي الَّذي كان قادرًا رفع الصخور وهزِّ الجبال ... الوجه متورمٌ وزاويتا الشفتين تقطران ريقًا" [49]

مع براعة التَّصْوير في المقطع وما يُخَيَّل للقارئ من صورٍ تَمُرُّ أمام ناظريه وكأَنَّهَا مقاطع من فلم، فكل جُزئية تُظهِرُ للمُتَلقي زاوية من زوايا المشهد، الى أن وصل السَّارد الى تصوير ابيه وهو فاقد للسيطرة على كل شيءٍ، حتَّى اللعاب أصبح يتقاطر من زاويتي الشَّفتين، ويعجزُ عن التَّحكُم فيه، لِيُحيلنا بذلك الخطاب على منظومة القِيَم، انَّها المنظومة القيمية التي يحتكم اليها بنو البشر، انَّهَا الميزان الّذي يحفظ للمجتمع توازنه واستقراره واستمراريته، اليدان مرتجفتان، يصعب عليه الوقوف، شكله يثير الضحك، تنبعث منه رائحة كريهة، تبوَّل على نفسه، وجهه متورم، زاويتا الشفتين تقطران ريقًا، انَّه خطاب العبثية والضعف امام القيمة، فالقيم: "هي القواعد الكلية الحاكمة والمعايير الثابتة الراسخة والمبادئ المطلقة التي تضبط وتحكم وتقيّم تصرفات ونشاطات المجتمع، ومنظومة القيم هي اللبنات الأساسية لقيام أي مجتمع بغض النظر عن دينه وعرقه ولسانه ولونه"[50] فَلَا يُمْكِنُ أن نتصور وجود مجتمع إنساني بدون وجود منظومة قِيمِيَّة فَهَذِهِ القيم والمثل العليا التي تحكمه ويحتكم اليها، وتوجه وتضبط التصرفات العامة والخاصة في هذا المجتمع،

فتلك المنظومة من القيم والمثل العليا هي التي تميز المجتمع البشري عن المجتمع الحيواني الذي لا تحركه إلا الغرائز، فهي باختصار استجابة لصوت الفطرة التي يولد عليها كل مولود، ومهما كان المجتمع حرًا أو مُسْتَعْمَرًا –بفتح الميم- مُتَعَلِمًا أَوْ جاهلًا، فإنه لا يستغني عن منظومة خاصة به من القيم، والمتتبع لحال المجتمعات البشرية حتَّى قبل ظهور الإسلام يجد أنَّهَا رغم جاهليتها الشديدة الَّا أَنَّهَا لا تخلو من الفضائل الإنسانية، من شجاعة، واقدام، وإكرام الضيف ...

"قيمة الاشياء المادية المكتسبة تكون قد طفت على كُلِّ عناصر الانتماء لدى شخصية البطل، فأورثتها طبيعة مُخالفة تمامًا لطبيعة الأَب الحقيقي الَّذي يُشاهده الطفل وجهًا لوجهٍ في حالة موت مهين، تكريسًا لعبثية تصنع مسوغًا لتآلف سيمات الضعف أمام القيمة مهمَا كانت سامية والاستمرار في الاتكاء على المادة بوصفها سندًا دائمًا"[51]

ايُّ تحطيم لهذه المنْظومة القيميَّة عندما يكون الطفل وجهًا لوجهٍ مع والده الَّذي يرى فيه أَنَّه المثل الاعلى، وهو في حالة مُهينة، للأسف أَنَّ هذه الحالة لمْ تُفْرَض عليه بسبب عجز أو مرض ولكنها خياره الذي حشر نفسه فيه، لنشوة عابرة حطمت صورة الأب.

فَهَذَا مَا كَشَفَتْهُ رِوَايَة: فَضْل اللَّيْل على النَّهَار لياسمينة الخضرا، وَمَا بَاحتْ بِه تِيمَاتُهَا النَّصِّيَة، حَيْثُ قَارَبَتْ هَذِهِ الرِّوَاية الجَدَلَ القَائم حَوْلَ العَلاقات الجَزَائِرية الفِرَنْسِية، ضِمْنَ سِيَاقٍ تَارِيخِي وبُعْدٍ ايديولوجي، حَاوَلَ الكَاتِبُ تَعْزِيزَ فِكْرَةَ التَّصَالح مَعَ المَاضي والانْفِتَاح على الآخر، حيْثُ ظَهَرَ ذَلِك كصِرَاعٍ مع الذَّاتِ المتَفَاعلة داخل المتْن الرِّوائي، أين صوَّر الوَضع السِّياسي المأْزوم، والدَّائم الاضطراب منذ الاستقلال، مع تهميش النُّخْبَة، وعدم وضوح الرُّؤْية في الافق، ضِفْ الى ذَلِكَ الاستبداد بالرَّأْي والحُكم، وهذا كُلُّه من أجل تهيئة المتَلقي وتَوْجِيهه للقبول بأفكاره الَّتي سَيطرحها، فَيجد القارئ نفسه

من حيْثُ لا يدري طرفًا متفاعلًا مع ايديولوجيا (الكاتب/النَّص)، امَّا بالقبول أوْ بالرَّفض.

فإيديولوجيا الكاتب تَبْدُو بَيِّنَة واضحة المِعَالم من خلال ترحابه العريض بالآخر ومُحاباته له، فهو يَتَسَتَّرُ على جرائمه ويبحثُ لهَ عن مبررات.

بِالعَوْدَة الى التَّأْرِيخ فَبَعْدَ مُرُورِ قَرْنٍ على احتلال الجزائر احْتَفَلت فرنسا بذلك وظنت انَّهَا دَجَّنَتْ الجَزَائِرَ واصبحت قطعة فرنسية احتفلت بِذَلِك، وكانت حينها تظن بأنّها قضت نهائيا على الشخصية الجزائرية، وأنّ احتفالها هذا، إنما هو احتفال بالجزائر الفرنسيّة وإدماجها تماما " الجزائر فرنسية" التي قال عنها "فرجات عباس": "إنّ هذه العبارة وحدها لكفر بالمنطق السَّليم"[52].

اسْتَرْجَعَ الكَاتِب ايام الاستعمار الفرنسي للجزائر في اسقاط بِأَنْ لا شيء تغير، غير ان الحكومات المتعاقبة كرست لبقائها، اما حياة المواطنين فتدهورت على جميع مناحي الحياة، من الناحية الامنية، والاجتماعية، والسِّياسية، والفكرية، والثَّقافية، وحتى الدِّينية.

"اتعرف يا جوناس؟ اريد بصدق أَنْ تَخْرج الجزائر من أزمتها.

قال بيريس: ستخرج من ازماتها، الجزائر بَلَدٌ قوي، يكفي حضور اراده قوية ...

ستكسر اسنانها ولكنَّهَا لا تزال طفلة صَغِيرَة ستقوم لها اسنان اخرى.

لماذا امتلأت جبالكم بالإسلاميين؟

وهذا الجيش الذي يضع نفسه فرجه للعالم؟

اليس هذا دليل على انكم لا تصلحون الا للدمار والقتل؟"[53]

إنَّ تيمة العُنْف والقتل والموت لا تطفو على سطح النَّص، بل تظهر هذه التِّيمَات في بعدها الرَّمْزِي، وذلك بالنَّظر إلى سيطرة عامل المِحْنة على المِخْيال الثَّقَافِي والإبْدَاعِي للأدباء الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية وأسّسوا لهذا الأدب، فَفرض العنف الدَّمَوِي

للعشرية السَّوْداء نفسه على المِتْن، فكانت الصُّورة صادقة تأخذ القارئ عبر الزَّمَن لتعود به لتخْييل الحقبة الكولونيالية، لمرحلة التعذيب والقتل، وصولا الى الثورة التحريرية المباركة، ومنها الى فترة التسعينيات (العشرية السوداء)، الَّتِي تميزت بخطورتها وتجاوزاتها فكانت تِيمَة العُنْفِ والموت حاضرة كرمز للانفلات الامني لتأخذ القارئ الى زاوية مظلمه من تاريخ الجزائر، بفعل القراءة والتَّخْييل، ليعيش المرحلة بِكُلِّ تَفَاصِيلها بتفاعله وانفعاله مع المتن الرِّوَائي.

"وجَلُّول كَيْفَ كَانَ مَصِيرَه؟

اعرف أَنَّه كان نَقِيبًا في الجيش الجزائري ...

لقد اخذ تقاعده من الجيش برتبه كولونيل في بِدَاية سنوات التِّسْعِين، لم يسكن بريّو ابدًا كانت له فيلا في وهران، أَمِلَ أَنْ يَقْضِيَ فيها سنوات تقاعده، ولكن الارهاب الاسلاموي وقع علينا الصَّاعقة وتَمَّ اغتيال جلول قُرْبَ مَنْزِلِه، بخرطوشة بندقية صيد، وهو جالس عند باب بيته يَشُمُّ هَوَاء المِسَاء الطَّري"[54]

حَاوَل الكاتب ياسمينة خضرا رسم الواقع المأساوي، ونقله بصورة واضحة كونه عايش هذه الفترة، وأَنَّه رجل عسكري فقد كان مستهدفًا في اي لحظة، وهذه الفئه كانت مهددة لذلك كان الاقدار من غيره على خوض غمار هذا اللَّوْن من الكتابة الَّذي يرتكز على تِيمة الموت والعُنْف والارهاب فَقَدَّمَ صُوَرًا مُتَبَاينة لأشكال العنف منه الارهاب السِّيَاسِي والاجتماعي والعنف ضد المثقف فَالفرد الجزائري اصبح يعيش ولا يأْمَن على نَفْسِه حتَّى من اقرب النَّاس اليه وهذَا ما عبَّرَ عنه السَّارد في قَوْله:

"جلول مات؟

نَعَمْ قَتَلَهُ ارْهَابِي.

نعم امير من الجماعات الاسلامية المسلحة،

واسمع جَيِّدًا دادي حفيده الخاص،

قاتل جلول هو حفيده"[55]

بهذه الصُّورة يكون الكاتب قد رَسَمَ الصُّورة الحقيقية لوجه الارهاب، الَّذي لا يعرف شفقة ولا رحمة حتى مع اقرب الناس في سبيل تحقيق الاهداف المرسومة، وهو السَّعْي بكل جهد لتغير نظام الحكم والسيطرة عليه،

وبفعل القراءة والتَّخْييل يُخَيَّلُ للقارئ بأَنَّ الكاتب تحايل عليه، ولعب بالحيز ودس فيه سؤالا جَدَلِيًا (polémique)، يتمثل في مدى اهليه الشعب الجزائري للاستقلال، فَالرِّوَاية تُثِيرُ جَدَلًا كَبِيرًا انْطِلَاقًا من عنوانها: فَضْل اللَّيْل على النَّهَار، ثم الحنين الى زمن الاستعمار بصفته المِنْجى الَّذِي يُمَكِّنُنَا مِنَ العيش فيه والتَّعايش معه، والتَّصالح مع بعْضِنَا تحت ظِلِّهِ، وفَضَّلَه الكاتب على الاستقلال الَّذِي لم يحقق اي اضافة للجزائريين حسب زعمه، عدا الصِّرَاعات وفشل الأَنْظِمَة ما بعد الكولونيالية في تحقيق الاستقرار،

وفي مقاربة ظالمة حاولت الرواية المقارنة بين زمن الحرية والاستقلال وزمن الاستعمار محاولة وتكريس فكرة أَنَّ البقاء تحت راية الاحتلال افضل من الاستقلال، وظل هذا الجَدَلُ قائمًا من بداية الرِّوَاية حتى يُؤَثِر السَّارد على القارئ ويوهمه عن طريق التَّخْييل بصدق المقولة: "إنَّ الاسْتِقْلال هِبَةٌ ليْسَت من حق الجزائريين لأَنَّهُم لم يصْنَعوا بِه شَيْئًا جَدِيرًا بالاهتمام، وَمَا دُخُولُهُم في زَمَنِ الفِتْنَةِ الطَّائِفِيَة الَّا دَلِيلًا على أَنَّهم لا يَسْتَحِقون ذلك، ولو أَنَّهم عاشوا في ظل أُمِّهم فرنسا واحْضَانِهَا الدَّافِئَة لَكَانَ ذلك خَيْرًا لَهم"[56]

فاذا نجح السَّارد في اقناع القارئ بصدق هذه المقولة، تلحق حينَهَا ايديولوجيا القارئ بإيديولوجيا السَّارد ومنها بإيديولوجيا الكاتب .

فَبَيْنَ السَّرْد والوصف يتبدى ويُخَيَّلُ المعْنى الحقِيقي الَّذي يُحَاول الكاتب دَسَّهُ للقارئ، وبفعل القراءة والتَّخْييل يتكشَّف هدف من اهداف الرِّواية، متمثِّلًا في التَّصالح مع الذَّاكرة، حَيْثُ مَجَّدَت الرِّواية الصَّدَاقة والتَّعايش بين الجزائريين والفرنسيين، وعَبَّر

السَّاردُ عن ذلك من خلال تَشَظِّي شَخْصِية البطل (يونس/جوناس)، ليَبْقَى يونس جزائريًا مع اخوانه الجزائريين، وهو جوناس مع أَصدقائه الفِرنْسيين.

ما يُعَدُّ مُحَرَّمًا وخَطًّا احمر على المؤرخ يمكن للروائي أَنْ يَقْفِزَ عليه، فَيَتَحَايل على القَارئ، ويَلْعَبُ باللُّغَة والفَضَاء، لذلك جَاءت رِوَايَةُ فَضْل اللَّيْل على النَّهَار، عِبَارَة عن مَتَاهَةٍ مَمْلُوءَة بِالمطبَّات والدَّسَائِس، غير اَبهَة بقداسة التَّأْريخ، في مُحاولة للطَّعْنَ فِيه، بالتَّحايل التَّخْييلي والايديولوجيا المُوَجَهَة.

خلاصة:

حَمَلَ الأدب الجَزَائِرِي المَكْتُوب بِالفِرَنْسِيَّة في طيّاته مُنذ ولادته سؤال وجوده، وإشكالية هويته وانتمائه، الَّتي عرضناها في ثنايا هذه الورقة البحْثِيَّة، وخلصنا إلى أَنَّهُ نَجَحَ فِي مقارعته الاستعمار في ميدانه وبلغته والتغلب عليه، بفضحِهِ لجرائمه، كما أنه تطور سريعا في مضامينه وذلك حسب الظروف التي عاشها الشعب الجزائري حينها، وَاحَاطَ بِمُقْتَضَيَاتِ الوَاقع فِي بُعْدِهِ التَّارِيخِي، وَاتَّخَذَ الصِّرَاع فِي رِوَايَةُ فضل اللَّيْل على النَّهَار مَنْحَىً ايديُولُوجِيًا، وفَكَانَ لَهَا السَّبْقُ بِأَنْ تَنَاوَلَتْ المسكوت عنه بكل جُرْأَةٍ، حيث طرحت قضيَّة أصحاب الأقدام السَّوْداء، ورافع الكاتبُ على هذه الفيئة، وكأَنَّها لم تأْتِ البلد غازيةً، فطغى الخطاب الايديولوجي المُوَجه على الرِّواية من بدايتها وانطلاقا من عنوانها: فضل اللَّيْل على النَّهَار، حيث انطلقت الأَحْدَاث بجمله من الاسْتِرْجَاعَات تَبَادَل فيها الكاتب توجيه الخطاب مع السَّارد، واعتمد اَلية التَّذكر الاسْتِتَارة مَلَكَة التَّخْييل لَدَى القارئ، فَصَوَّرَ المقَاطِعَ مَشْهَدًا مَشْهَدًا، فوضع المتلقي في قلب الحدث كما لو انَّه يَعِيشه، واعتمد الكاتب النِّهَاية المفتوحة على التَّخْييل، وكأَنَّه يبحثُ عن جوابٍ لِكُلِّ الاشكاليات المطروحة حيث قال:

"Tant qu'on n'aura pas la réponse la blessure ne cicatrisera pas"[57]

تَرْجَمَةُ المقْطَع:

طَالَمَا لَمْ نَتَلَقَ جَوَابًا، سيبقى الجرح مفتوحٌ، سَوْفَ لَنْ يَنْدَمِلَ.

فببقاء الجرح مفتوحًا تبقى الرِّواية مفتوحة على التَّخْييل والتَّأْوِيل، وكأنِّي به خطاب إيديولوجي مُوَجَّهٌ لأصحاب القَرَارِ بالبلاد، يتضمن تهديدا مُبَطَّنٌ يُبَيِّنُ فيه الكاتب بِأَنَّ: اصحاب الأَقْدام السَّوْداء وُلِدُوا على هذه الأرض، وعَاشُوا عَلَيْهَا، وخَدَمُوها، وهُجِّرُوا مِنْهَا قَصْرًا، وتركوا وراءهم ديارهم وممتلكاتهم، فَلَن يَسْكُتُوا عن هَذَا الحق، فَيَجِبُ اعَادَةُ النَّظَرَ لِأَصْحَابِ هَذِهِ القَضِيَّة بِشَيءٍ من المَوْضُوعِيَّة حَسْبَهُ.

الهَوَامِش والاحَالَات:

[1] – ابن منظور، لسان العرب، تح عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هشام محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة مصر، ص 361

[2] – سُورَة الفُرْقَان، الآية 63

[3] – سُورَة ص، الآية 20

[*] – فرديناند دي سوسير أو فرديناند دي سوسور، عالم لغوي سويسري يُعَدُّ مِن أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، واتجه بفكره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، وُلِدَ في 26 نوفمبر 1857 بجنيف، وتوفي في 22 فبراير 1913، يُعْتَبَر بمثابة الأب للمدرسة البُنْيَوِيَة في علم اللسانيات. فيما عدّه كثير من الباحثين مؤسس علم اللغة الحديث، عُني بدراسة اللغة الهندية، الأوروبية، وقال إن اللغة يجب أن تعتبر ظاهرة اجتماعية. من أشهر آثاره: `بحث في الألسُنيّة العامة` (كتبه باللغة الفرنسية ونُشر عام 1916، بعد وفاته) وقد تُرْجِمَ إلى العربية بترجمات متعددة ومتباينة، وكان مُسَاهِمًا في تطوير العديد من نواحي اللسانيات في القرن العشرين، وَهُوَ أول من أعتبر اللِّسانيات كفرع من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية، اقترح دي سوسير تسميته سيميولوجي، ويعرف حاليا بالسيميوتيك أو علم الإشارات.

[4] – رابح بخوش، اللِّسَانِيَات وَتَحْلِيل النُّصُوص، عَالم الكُتُب الحَدِيث، اربد، الأردن، 2009، ص 86

[5] – سعيد يَقْطِين، تَحْلِيل الخِطَاب الرِّوَائِي (الزَّمَن– السَّرْد– التَّبْئِير)، المَرْكَز الثَّقَافِي العربي للطباعة والنَّشْر والتَّوْزِيع، بيروت، لبنان، ط 3، 1997، ص 19

[6] – أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنَّمَط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010، ص 24

[7] – جَبُّور عَبْد النُّور، سُهَيْل ادْرِيسِي، المُنْهَل، قَامُوس فِرَنْسِي عَرَبِي، مطبَعَة دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1970، ص 337

[8] – سعد البَازِعِي، مِيجَان الرويلِي، دليل النَّاقد الأَدَبِي، إِضَاءَة لِأَكْثَرَ مِن سَبْعِينَ تَيَّارًا وَمُصْطَلَحًا نَقْدِيًا مُعَاصِرًا، المَرْكَز الثَّقَافِي العَرَبِي، بَيْرُوت، لُبْنَان، الدَّار البيضاء، المغرب، ط 3، 2002، ص 155

[9] – سَارَة مِلِيز الخِطَاب، تَر: يُوسِف بَغُول، مَنْشُورَات مِخْبَر التَّرْجَمَة فِي الأدب وَاللِّسَانِيَات، جَامِعَة منتوري، قَسَنْطِينَة، الجَزَائر، د ط، 2003، ص 8

[10] – سعد البَازِعِي، مِيجَان الرويلِي، مَرجع سَابِق، ص 155

[11] – مُنِير غَسَّان وَآخَرُون، الهُوِيَة الوَطَنِيَّة وَالمجْتَمَع العِلْمِي وَالاعلام، دَار النَّهْضَة العَرَبِيَّة، بَيْرُوت، لبنان، ط 1، 2002، ص 67

[12] – مَحمَد شَاوش، نَحْوَ ثَقَافَةٍ تَأْصِيلِيَة (البَيَان التَّأْصِيلِي)، دَار العَرَبِيَّة لِلعُلُوم، بَيْرُوت، نَيْنَوَى لِلدِّرَاسَات وَالنَّشْر وَالتَّوْزِيع، سُوريَا، ط 1، 2007، ص 35

[13] – صَالَحَ مَفْقُودَة، مَلَامح وَأَشْكَالُ الهُوِيَّة فِي رِوَايَة فَضْل اللَّيْل عَلَى النَّهَار لِيَاسْمِينَة خَضْرَا، مَجَلَة قِرَاءَات، مجلد 14، ع: 01، 2022، ص 109

[14] – جُون جُوزِيف، الهُوِيَة وَاللُّغَة (قَوْمِيَّة، اثْنِيَة، دِينِيَّة)، تَ: عَبْد النُّور خَرَافِي، عَالَمَ المعْرِفَة، الكُوِيْت، (د ط)، 2007، ص 12

[15] – فايز الصبّاغ وآخرون، اللغة والهويّة في الوطن العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط:01- 2003، ص 55

[16] – المرجع نفسه، ص 71

[17] – المرجع نفسه، ص 71

[18] – فتيحة كحلوش، أسئلة المكان والكينونة في شعر درويش، مجلة تروى، ع:72، سلطنة عمان، أكتوبر 2012، ص 50

[19] – سورة الإسراء . الآية 85

[20] – فايز الصباغ، مرجع سابق، ص 51

[21] – المرجع نفسه، ص 51

[22] – المرجع نفسه، ص 52

[23] – غريغوار منصور مرشد، سيد محمد صادق الحُسيني، نحن والآخر، دار الفكر المعاصر، بيروت–لبنان، ط:1،2001، ص93

[24] – سورة الذاريّات، الآية 08

[25] – سورة مريم، الآية 37

[26] – سورة يونس، الآية 93

[27] – سورة الرّوم، الآية 22

[28] – سورة هود، الآية 118–119

[29] – غريغوار منصور مرشد، سيّد محمد صادق الحسيني، مرجع سابق، ص93

[30] – فايز الصباغ، مرجع سابق، ص 58

[31] – أحمد الدّمناتي، أسئلة القلق الشعري في صمت البنفسج لعائشة إدريس المغربي، نزوى، مؤسسة عمان للنشر والصحافة والإعلان، العدد،72 ، أكتوبر 2012، ص 275

[32] – سليم بوتقة، رهان اللغة في الخطاب السردي لدى محمد ديب، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع:02 – 03 مطبعة منصور جامعة الوادي ، مارس 2010 ص 93

[33] – محمد ديب، الثلاثية (الدار الكبيرة . الحريق . النول)، ت: سامي الدُّروبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان، ط:1، 1968، (المقدمة)، ص07

[34] – المرجع نفسه، ص07

[35] – المرجع نفسه، ص07

[36] – المرجع نفسه، ص06

[37] – عزيز نعمان، جدل الحداثة وما بعد الحداثة في نص سيمورغ لمحمد ديب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، 2012، ص 169

للاستزادة ينظر:

– Garine Goyo, Etude littéraire de l'infante maure de Mohammed DIB; P: 109

* - S.N.P sans nom patronymique

[38] – المرجع نفسه، ص 169

[39] – المرجع نفسه، ص 168

للاستزادة ينظر:

Mohammed DIB, Simorgh, P: 76

[40] – المرجع نفسه، ص 07

[41] – بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ط1 حزيران / 2009 ص 31 .

[42] – صَالِحَ مَفْقُودَة، مَلَامح وَاشْكَالُ الهُوِيَّة فِي رِوَايَة فَضْل اللّيْل عَلَى النَّهَار لِيَاسْمِينَة خَضْرَا، مَجَلَة قِرَاءَات، مجلد 14، ع: 01، 2022، ص 131

[43] – المرجع نفسه، ص 131

[44] – احمد فندو، شعرية الحوار المنولوجي في رواية فضل الليل على النَّهَار لياسمينة خضرا، مجلة اشكالات في اللُّغة والادب، مجلد 10، ع 1، 2021، ص 1188

[45] - ياسمينة خضرا، فضل الليل على النَّهار، تر: محمد ساري، وزارة الثَّقافة الجزائرية، ص 141

[46] – المرجع نفسه، ص 14

[47] – سورة يوسف، الآية 49

[48] – سورة يوسف، الآية 46

[49] – ياسمينة خضرا، فضل الليل على النَّهار، ص 67

[50] – شريف عبد العزيز، منظومة القيم وأثرها في بناء المجتمعات وانهيارها، ملتقى الخطباء، تاريخ النَّشر : 2019/11/18

[51] – عادل بُوديار وامال كبير، التَّقْمِيص الكُولُونْيَالِي وازدواجية الهوية في رواية فضل اللَّيْل على النَّهَار، المدونة، المجلد 8، 1 مارس 2021، ص 927

[52] – فرحات عباس، ليل الاستعمار، منشورات ANEP، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية – الجزائر، 2006، ص30

[53] – ياسمينة خضرا، مرجع سَابِق، ص 280

[54] – المرجع نَفْسَهُ، ص 284

[55] – المرجع نَفْسَهُ، ص 285

[56] – عادل بُوديار وامال كبير، التَّقْمِيص الكُولُونْيَالِي وازدواجية الهوية في رواية فضل اللَّيْل على النَّهَار، المدونة، المجلد 8، 1 مارس 2021، ص 932

[57] - yasmina khadra, Ce que le jour doit a la nuit, éditions Julliard, paris, 2008, p 50